أديبات من سوريا

بقلم عيسى فتوح

كان ذلك (١) قبل ستة وعشرين عاما ، يوم ولدت لسلمى رويحه واحمد السمان طفلة اسمياها « غاده » ... شعرها وعيناها بلون العنمة ، اما بشرة وجهها فبلون البن او الذهب المحروق ... وما ان ترعرعت الطفلة حتى طفق ابواها يعلمانها الفرنسية ... فقد كانت والدتها استاذة للعربية والفرنسية في الكلية العلمية الوطنية ... ومرة رأى الدكتور انور حاتم والدها يحملها ، وحدثته بالفرنسية ، فابدى دهشته لذلك ، لكنه حذر الابوين من ان نطقها بالعربية قد لا يستقيم ما لم تتعلمها باكرا ... ومن يومها بدأت امها تعلمها القرآن عن ظهر قلب ، فهمنه ام لم تفهمه ... ليستقيم نطقها ، وتفصح عبارتها ، وتسلم من اللحن ... لكن توفيت امها وهي في الخامسة من عمرها ودفنت في اللاذقية ، مسقط رأسها ، فكان لوفاتها صدى مفجع في نفوس الكثيرين ... رثاها في حفلة تأبينها الدكتور زكي المحاسني ،والشاعران انور العطار ونزار قباني ، وكان من جملة ما قاله نزار في قصيدته التي لم تنشر ، وهو يومئذ شاب صغير في العشرين من عمره :

قد تنبأت بانهيارك قبلا ... رب حلم يفوق كل يقين
اتذكرت مجلسا قلت فيه : ... شاعري ان صرعت هل ترثيني
قلت : تفديك اغنياتي الطرايا ... ودعيني من السواد دعيني
لا تقولي اموت عيشي لطفلين ... كتفتيح زنبقات الغصون

ذكرياتها عن امها كثيرة وواضحة حتى لتشبه الرؤيا ... تحس بارتباط غامض بينها وبين امها ... تعرف انها كانت مكافحة ، وتشعر بانها استمرار لها ، لرسالتها ، لادبها ، لرغبتها في بعث المرأة العربية بعثا جديدا مجديا ... تتصورها بشكل مشوش يقترب من اليقين .

ومرة ... ايام طفولتها ، كانت مسافرة مع ابيها لزيارة قبرها في اللاذقية ... وفي الطريق المقفرة ليلا سألت اباها عن امها ... فاشار الى نجمة في السماء وقال : هذه امك ... فصدقته يومئذ .. وبعد وفاة امها بدأت صداقتها مع ابيها ... كانت له كل شيء كما كان لها كل شيء ... غرقت في خضم من الدراسة كان يضم في اطاره تيارات كثيرة خفية ومختلطة .

درست في اللاييك حتى الصف الثالث الابتدائي دراسة فرنسية، ثم فضت عاما في الكلية العلمية الوطنية ، وعاما اخر في مدرسة الفيحاء، حيث نالت الشهادة الابتدائية في العاشرة من عمرها ... كانت في هذه المرحلة تتمتع بصداقة ابيها الرائعة ... ترافقه وتصادقه وتستفسر منه عن امور كثيرة ... كانت تعبد القراءة ... تلتهم كل شيء ... قرأت مكتبه كامل الكيلاني للاطفال برمتها ، وعرفت منذ تلك السن الاثار الادبية الرائعة مبسطة ... عرفت الملك لير ، وتاجر البندقية... وعرفت عوالم تشارلز ديكنز ، واجواء ويلز ، بشكل طفولي عابر ... وكانت تهوى قصص الساحرات والجنيات .

ثم تابعت دراستها الاعدادية والثانوية في تجهيز البنات الاولى بدمشق ، وفيها بدأت بدراسة اللغة الانكليزية التي اصبحت موضوع اختصاصها فيما بعد . لقد طالعت في هذه المرحلة كل ما وقعت عليه يدها دون نظام ... طالعت روايات بوليسية وعاطفية ، كرواية آلام فرتر ، وروميو وجولييت ، وعطيل ، وسيرانو دي برجراك ، وكثيرا من الكتب المترجمة ، الى جانب تعمقها في الشعر العربي القديم والنثر ، كتب الجاحظ والمبرد وغيرهما ... وفي هذه الفترة ايضا كانت تكتب مذكراتها وتجد في كتابتها دواء لها من مرض الحساسية ، من التفجيرات الخرس العجيبة ، وفورات التمرد والنقمة .

عندما بلغت الرابعة عشرة من عمرها بدأت مذكراتها تتحول ـ دون ان تشعر ـ الى تلوين او تضخيم لبعض الحوادث ، وتغفل اشياء اخرى ... كانت احيانا تكتب اشياء لم تحدث ، لكنها تعيشها كما لو كانت قد حدثت ... تكتب حكاية انفعالات انسان غريب ، امام حادثة تخصه ، كأنها حادثتها ... وبعد فترة تعلقت بالكتابة الى حد غير معقول ، حتى انها اصبحت لحظاتها الحقيقة الوحيدة ، وخصوصا حينما اكتشفت انه من الصعب ان تتفاهم مع الكثيرين ، فكانت تلجأ الى الورق لتكتب ، وتهرب الى الكتاب لتقرأ .

وخلال هذه الفترة ، اي في الرابعة عشرة من عمرها ، واجهت مشكلة كبيرة ، حينما نالت الشهادة الاعدادية (الكفاءة) فقد كان عليها ان تختار بين الفرع العلمي والفرع الادبي ، اي كان عليها ان تحدد حياتها ... وطيلة هذه المدة كان ابوها يحاول ان يغرس في نفسها رغبته في ان تدرس الطب ، ولكنها كانت تحس بانحراف غريب نحو الادب ، واحاديث الادب ، وكل ما يمت للادب بصلة ... واخيرا اذعنت لمشيئة ابيها ، ودرست البكالوريا العلمية ، وفازت بها بدرجة جيدة... لكنها عندما دخلت الجامعة ، لم تستطع مقاومة نفسها اكثر ، فاختارت دراسة الادب الانكليزي ، وتركت لاخيها مهنة الطب .

كان ابوها مرافقها وصديقها دوما ... يقضيان الاوقات باكملها معا ... يخرجان للمشي على الاقدام مسافات طويلة ، ويمارسان رياضتهما معا ... يسبحان ... يصطادان ... يسافران .. كانت كأي « رادار » حي ، تتأثر بأي شيء ثم تعكسه في كتاباتها التي كان يشرف عليها ويشجعها ، فقد بدأت بعد الكفاءة تكتب الشعر ...

علمها ابوها كم هي جميلة بلادها ، في القدموس ، في غابات كسب ، في بحر اللاذقية ... وعود اذنها منذ الطفولة على حب الفن وتذوق الموسيقى الكلاسيكية ، والموشحات الاندلسية ... وكثيرا ما كانا يتناقشان في قضايا الوجود والله والمنشأ ... لكنه لم يحاول مرة ان يفرض عليها رأيا وانما كان يذكر لها دائما ما قيل في هذه المجالات كلها ، ووجهات النظر جميعا ... وكان اساتذة الجامعة من اصدقاء ابيها اصدقاءها ، فعاشت في جو فكري معين ، قد يكون فيه بعض القسوة على سنها ، لكنها كانت تحبه ، لانه عودها على المجاهرة بالرأي، وعلى البحث عن الحقيقة ... لم يشعرها ابوها بعقدة كونها انثى ، لانه كان يمنحها دائما حقوق اي صبي في مثل سنها ، فعشقت الحرية الحقيقية التي تتضمن مسؤولية كبيرة امام نفسها وامام الاخرين .

لقد اشترى ابوها مزرعة صغيرة رائعة يخترقها نهر بردى ،وتحيطها

(١) فصل من كتاب بهذا العنوان سيصدر قريبا .

الخضرة والازهار ، وابتنى دارا ريفية على صخرة كبيرة وسط النهر... وهناك كانت تقضي الصيف ... وتواجه جمال عري الطبيعة ، وجمال صدقها ووضوحها وجبروتها ، وهناك عشقت الصدق والحقيقة ، وآمنت بان رسالة اي فنان هي البحث عن الحقيقة ... وهنالك ايضا كانت تكتب اشعارا كثيرة تريحها من ضيق خفي ... وتتفجر باكية احيانا حينما تحس حنينا غامضا مؤلما الى اشياء خفية وبعيدة يعجز الحرف عن التعبير عنها ، كانت تكتب والدموع تسح من عينيها ، دونما سبب واضح ... كانت في تلك المرحلة شفافة وحزينة ، لا كما هي اليوم صلبة وحقيقية ومعتدة بانسانيتها ... كانت تبكي جمال اللحظات ، وجمال المكان الذي لا يدوم ... تبكي صفة الفناء التي تلازم جمال الاشياء ، وكانت عندما تكتب الشعر تحس بخيبة عميقة بعد الكتابة،لان رخاوة الاسلوب بالنسبة لحرارة الاحساس ، كانت تفجعها انذاك ، فآمنت بان عليها ان تقرأ كثيرا ، وان تعيش اكثر ، وان تواجه المدينة ولا تهرب الى « يوتوبيا » المزرعة الحلوة .

وفي مطلع عامها الدراسي الاول خطبت ، وتزوجت في نهايته ، لكنها ثابرت على دراستها الجامعية ... دام زواجها اقل من عامين ، ثم افترقت عن زوجها بالطلاق بعد فحص الليسانس باسابيع ، وكان ابوها طيلة هذه الفترة صديقها الوحيد ... وبالاجمال فقصة زواجها وطلاقها غامضة تحوطها الشائعات والتخمينات ولا احد يعرف عنها شيئا.

كان لهذه التجربة التي عرفت فيها الحياة والناس بشكل واسع ، ولدراستها الادبين الاميركي والانكليزي في الجامعة ، اثر عظيم في نفسها وكتابتها ... اذ صارت لها رسالة واضحة ... عرفت معنى الجرأة ، ومعنى الكفاح ، ومعنى الثمن الذي ندفعه لنخلص من الخوف ، ومن ازدواج الشخصية . لقد توقفت نهائيا عن كتابة الشعر ، وبدأت تكتب القصة ، وكان قالب النثر يترك لانفعالاتها المحمومة وارائها الثائرة حرية كاملة في ان تنفجر وتهيم بحرية مطلقة ... كما أن دراستها للادب الاجنبي والعالمي والنقد واسسه ، علمتها ان الموهبة ليست كل شيء ، ولا تستطيع ان تبدع اذا لم ترفدها الثقافة ... بدأت تحس بالحاجة لان تخلق شيئا جديدا ، لان تفجر طاقات لغتنا العربية الرائعة وتبرز حيويتها ومقدرتها على تأدية افكار جديدة ... ولذا يلاحظ النقاد ان لدى غاده لغة مختلفة جديدة .

كتبت في هذه المرحلة عددا كبيرا من القصص لم يره الا اصدقاؤها المقربون جدا ... كانت تكتب وتمزق دونما اسف ، وترفض عروضا كثيرة من عدد كبير من الاصدقاء للنشر ... ولم يخطر لها ان تنشر ... كانت رسالتها هي البحث عن الحقيقة ، وايجاد الاسلوب الذي يليق بها لنشرها على الناس ، وكانت قراءتها الكثيرة المستمرة للاداب الاجنبية من يونانية وافرنسية تجعل الغرور لا يعرف الى نفسها سبيلا .

وتم طلاقها عام ١٩٦٠ ، كما حصلت بعد ذلك بشهر على الليسانس في الادب الانكليزي بدرجة جيد ، وفي مواد الاختصاص كالادب الاميركي بدرجة الامتياز ، والادب العالمي والنقد بدرجة جيد جدا ... ويتساءل الكثيرون كيف استطاعت ان تثابر على دراستها بهذا الشكل رغم زواجها ورغم عملها كموظفة في جامعة دمشق ... لقد واجهت الحياة بصراحة وفهم ... عملت في القصر الجمهوري ، سكرتيرة في المكتب الصحفي عام ١٩٦٠ ، وظلت فيه حتى اواخر نيسان ١٩٦١ حيث وجدت نفسها في جو ادبي وصحفي ، ولسبب ما اقدمت على النشر ، وقررت ان تبدأ معركة جديدة ... نشرت قصة ثم نقدا ، ثم خواطر ، ثم واصلت الكتابة والنشر الى جانب قراءاتها المستمرة واعادتها النظر في كثير من المفاهيم، محاولة الوصول الى مواقف نهائية من المجتمع والوجود .

من جملة الاشياء التي كتبتها سلسلة من الخواطر نشرتها في جريدة « الوحدة » فاحدثت صدى قويا ... كتبت مرة مقالا بعنوان « فلنصلِّ من اجل الجارية التي تجلد » وهاجمت فيه بنات مدينة « حماه » اللواتي رفضن حق ممارسة الانتخاب ... مما اثار حفيظة بعض الناس ، فهوجمت ، وطبعت احدى الجمعيات الدينية منشورا وزعته ضدها في حملتها الانتخابية ... واثار ذلك عنادها واعتدادها وعوضا عن الصمت كتبت مقالا اخر بعنوان « فلنطالب بتحرير الرجل ايضا » فاثار المقال ضجة عنيفة لما فيه من مطالبة بحرية المرأة واعتبار خطيئتها مساوية لخطيئة الرجل،عكس ما هو موجود في مجتمعنا الحالي.

في نيسان ١٩٦١ تركت وظيفتها في القصر الجمهوري ، وعملت في المكتب الصحفي لمؤسسة المشاريع الكبرى ، الى جانب عملها في الصحافة مراسلة لدار « اخبار اليوم » القاهرية ، وقد نجحت في عملها الصحفي حتى ان بعض دور الصحف اللبنانية عرضت عليها العمل فيها مقابل مبلغ وافر .

وفي مطلع العام الدراسي ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ لقيت تقديرا كبيرا من كلية الاداب في جامعة دمشق ، حيث عينت استاذة محاضرة للغة الانكليزية في كلية الاداب نفسها ، ويقال انها اصغر استاذة فيها . ثم اشتركت في مسابقة اجرتها كلية الحقوق لتعيين مثقفة للطالبات في اذار ١٩٦٢ فنجحت وتركت على اثرها عملها في مؤسسة المشاريع الكبرى ، ثم اصدرت في الشهر نفسه مجموعتها القصصية الاولى (عيناك قدري) وهي الان تحضر للماجستير في الجامعة الاميركية تمهيدا لسفرها الى اوروبا للحصول على الدكتوراه في الادب الانكليزي،وتعمل في اكثر من صحيفة او مجلة لبنانية ، وقد اصدرت منذ اشهر مجموعتها القصصية الثانية (لا بحر في بيروت) .

***

ولعي بادب المرأة ، وادب المرأة الشامية بخاصة ، ولع كبير حتى ليكاد يطغى على اي ولع اخر ، بالرغم من تعدد الاهتمامات ، واختلاف الوانها عندي ... ولعل هذا الولع وهذا الاهتمام هما اللذان دفعا بي لرصد حركة الادب النسوي المعاصر في سوريا وتعقب كل ما انتجته اقلام كاتباتنا خلال السنوات الاخيرة ... بيد اني لم اشهد غزارة في الانتاج ، ولا طوفانا في النشر مثلما اشهد اليوم ... لا اكاد افتح مجلة ادبية دورية ، او صحيفة سياسية كانت ام ادبية ، حتى يطالعني اسم جديد في هذه الزاوية ، واخر في تلك ، تذيل به هذه القصيدة او تلك المقطوعة النثرية ، او هاتيك القصة او الاقصوصة ... ولقد تأففالبعض وامتعض ليس للغزارة فحسب ، بل لهذا التعجل في النشر بغية كسب الشهرة العريضة ، ولو بطرق ملتوية يعرفها اكثر الذين يختبئون وراء قبضة الاقلام الانثوية الطالعة ... ولكن لا هم فالزمن وحده كفيل بابقاء الصالح الجيد ، وافناء الفاسد والضعيف .

صحيح ان التطبيل والتزمير قد يلفتان نظر غير الواثق ، ويخلقان الاثارة في النفس ، غير ان الاثارة الاتية من الخارج لا يدعمها ايمان ذاتي عميق ، ولا شعور نابع من الصميم ، سرعان ما تزول كسحابة الصيف... فلنترك اذن اساليب الدعاوات الرخيصة ، لنفسح المجال امام القارىء كي يعرف ماذا يختار ... ماذا يهمل وماذا يأخذ ، ماذا ينفي وماذا يعد... وعند ذلك يستفيق من وهمه الخادع ، وينتقي الاجود والاحسن من غير دليل ... ولو كان في بلدنا نقاد منصفون موضوعيون ، نقاد يحملون مبضع النطاسي لا مدية الجراح ، وقيثارة العازف الفنانلا ربابة المداح المرتزق ، لاعتمد القارىء عليهم في ما ينتقي من كتب لرحلته الثقافية الطويلة .

***

في خريف عام ١٩٥٦ تعرفت بفادة السمان ، وكنا طالبي علم في « شهادة الثقافة العامة » ، بالجامعة ، نتلقى هذا الخليط المتنافر من الدروس تمهيدا للاختصاص ... كانت غاده عامذاك تكتب بصمت وتخف وخجل ، محاولات شعرية تطلعني عليها وهي تأبى نشرها ... كما كنت اطلعها على ما اكتب ... وراحت الايام تنطوي ومحاولات غاده تزداد نجاحا وعمقا ، عندما شاءت ان تدرس الادب الانكليزي ... فاذا بالمحاولات تصبح قصصا موفقة في قالب شعر ، يقرؤها الناس فيعجبون

ويدهشون ... يعجبون بالحساسية والرهافة ، ويدهشون باناقة اللفظة ، وجمال الصورة ، وبراعة التحليل ، وعمق الفكرة ... فغاده تتميز عن باقي الاديبات بانها كاتبة « انفعالية » تسكب عصارة قلبها وروحها في ما تكتب ، دونما تكلف او تعمثل ... كل ما فيها ينبض بالحرارة ، ويلهث بالدفء ، كأنها جبلت منهما ... تغريها شفافية الكلمة ، فتعيش في سحرها ، ويجذبها الرمز احيانا ، فتلوى اليه متحاشية غموضه ... ما اجمل التشابيه ترشها هنا وهناك مساكب ورد وبنفسج ... فخضر فتاتها النحيل كطوق الياسمين ، وهي تعاتبه كعصفور فاجأه الربيع ... وعينا « عماد » تجوسان وجهها كعاصفة عطر مثيرة ... والارقام ترقص في الصفحات كديدان مرعبة ... انها فنانة في سوق التشابيه الناعمة ... غايتها ان تظهر للقارىء مدى الذوق في توزيعها ، ومدى اللطف في جمالها ، ومدى الروعة في دقتها.

والى جانب ذلك فهي تعنى بالصورة عناية فائقة ... تكدس الصور ، تفجرها ، تأتي باكثر من لوحة واحدة في السطر ... علها تمتص شيئا من زخم الاحساس ، وتطفىء ولو قليلا من لهب الانفعال المتأجج ... لكنني لست ادري كيف استطاعت غاده ان توفق بين التأثر الشديد والعمل الفني وهذا الاخير يحتاج اكثر ما يحتاج الى الاناة والروية وهدوء النفس ... ذلك لان التأثر الشديد كثيرا ما يجمد الخيال ويمحوه . وفي هذا يقول سعيد عقل : « لم يقم اثر فني او عمل عظيم في حالة هياج . فالفن نتيجة الهدوء وعمل لا واع » .

ولقد ادرك الاستاذ محمد حيدر هذا او قريبا منه ، فاشار الى انه « لا يمكن ان تتوقع تعبيرا عقليا من كائن انفعالي : فعندما يتأججالانفعال في النفس ، فان التعبير اللغوي لا يستطيع ان يستوعب خلجات الانفعال، لذلك فان انبثاق الصورة الحسية بما لها من كثافة مادية وايحاء ، منفذ ملائم للانفعال المستعر في اعماق صاحبه ، وهو امر ملحوظ في الحياة، فالشخص الذي يشعر بان اللغة لا تستطيع التعبير عما يريد ، يستخدم الاشارة والتعبير الحسي ، وكثيرا ما تستخدم الجماهير هذا الاسلوب ، وقد برعت الكاتبة في استخدام هذه الصور التي تكاد تملأ صفحات المجموعة » (١) .

ومهما تكن الغاية من تكديس الصور والتشابيه ، فاغلب الظن ان مثل هذا العمل كان يضطرها الى اعادة النظر في ما تكتب اكثر من مرة ، وفي كل اعادة تحصل اضافات ، وتعديلات ، فقد تبدل صورة باخرى ، وقد تحذف هذا المقطع او ذاك ، الى ان يستوي ، ويأخذ شكله النهائي ، شأنها شأن كل كاتب ينقح ويحكك ، ويأبى ان يلقي بعمله الى الناس غفلا ، او كما جاء في صورته الاولى .

ان حدة الانفعال هي التي جعلت عبارتها دائما تتقطع ، ونفسها يتهدج ، كمن يعترف والخوف باد على سحنته ، تقذف الفاظها قذفا يغنيها عن ادوات الربط . وترد السيدة وداد سكاكيني هذا التخطف في عبارتها الى « تلك الموجة الجديدة الوافدة التي شاعت في الشعر والنثر لدى طائفة من الادباء الشباب ، كان من سماتهم القلق في التفكير والاداء ، وهو تعبير متلاحق ، متقطع الانفاس ، يشبه الصور التي تعرض بالفانوس السحري ، اذ ان كل صورة على جمودها ، لا تتصل بالاخرى فاين من ذلك مشاهد السينما الحية الناطقة التي تشبه التعبير السلس المترابط ... انه لو عرف هؤلاء فن الوصل والفصل في البلاغة العربية ، لما فضلوا هذا التخطف والتخفف في التعبير الوافد الذي اخذ يسري في ادب القصة الغربية التي تحتذي التكعيبية في مذهبها ، وكتابها ينقلتون بالوانهم على هواهم ، في التعبير عن نقمتهم على العادات السائدة ، وقد اتخذوا الوصف المتقطع وسيلتهم الى الانطلاق، دون التقيد بفكرة يدورون حولها » (٢) .

فاذا وضعنا ذلك الى جانب عنايتها بالصور ، ادركنا الى اي حد تنهك القارىء وتتعبه ، فهو مضطر دوما لان يلاحقها بخياله ، يطير حيثما تطير ، ويفرد جناحيه حيثما تفرد ، وبغير ذلك لا تحصل عنده المشاركة الوجدانية ... الانفعال المطلق يستحيل ان يستوعبه اللفظ مهما كان مثقلا بالصور ، مفعما بضروب البيان ... لقد بقيت الصورة عند غاده وسيلة لا غاية ، فلم تطغ على الفكرة ، ولم تنازعها حقوقها في ان يبقى لها مكان الصدارة ، بل جعلت العنصرين يتماشيان ويتآزران لابلاغ القصد ، فهما عندها كشقي مقراض يتعاونان على القطع ، ولا يدرى ايهما اقطع .

فاذا رجعنا بعد هذه الجولة الى قصة (عيناك قدري) التي سمت باسمها الكتاب ، رأينا ان محور القصة هو عينا عماد ، لا تفتأ ترجع الى ذكر تلاشيها ازاءهما كلما شطت ... حتى لكأنهما لازمة شعرية، اذا صح لنا ان ندخل اللازمة في القصة ... عينان استحالتا الى كابوس حلم يظل يلح ويلح ... كلما حاولت ان تهرب منه انتصب امامها كالمارد الجبار . لقد ذكرتني هاتان العينان بغراب الشاعر الاميركي ادغار الن بو، كلما اراد ان يفلت منه عاد اليه باسرار وتحد وعناد وصاح : هيهات .

وكان بو يقصد بالغراب محبوبته « الينور » التي فجع بها، فامتزج شبحها بدمه وراح يعذبه بمرارة .. وهكذا عينا عماد « ترصدانهما ، تلاحقانها ، تثيران حنينها الى رائحة شبابه ... عينان تطلان من كل شيء ... من الجدران حولها ... من وجوه العابرين ، من اصابع يدها التي تحاول ان تمسح بها النار عن جبينها ، عن معطفها حول رقبتها ... عيناه حارتان ، عاتبتان ، ممزقتان ... عيناه بكل ما فيهما من قوة حنان وثقة واحلام ... عينان تطلان من كل شيء مجنونتين قاسيتين ترصدانها كقدر لا تستطيع ان تهرب من عتابهما اليائس » .ثم تبلغ غاده ذروة التمرد والشموخ عندما تجأر « يا عينيك ... يا افاق الرعب ... الى اين اهرب ؟ » ... صرخة مفجعة يرسلها اليائس عندما لا يرى مهربا ... صرخة تزلزل افاق الدنيا ، صرخة الميت في هوى العينين النفاذتين ... غير انها تعود لتستسلم وتلقي السلاح عندما يقهرها طغيانهما ... وتنسرب في جدول شرقيتها المعروف ـ ان ترتمي في احضان القضاء والقدر ، فتقول في حرقة المنكسر : « عيناك قدري ... لا استطيع ان اهرب منهما ، وانا ارسمهما في كل مكان ، وارى الاشياء خلالهما » .

لله در هاتين العينين ما كان اغناهما ... وما كان اندى كفيهما على الادب ... منهما انطلقت غاده تكتب ... من قرارتهما نبعت غاده الاديبة، فرحم الله جريرا اذ قال :

ان العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

لم تقتل غاده بالعيون كما قتل جرير ، بل لملمت اشلاءها ،وراحت ترسم تجربتها على الورق قصة تلو قصة ، وخاطرة تلو خاطرة ... لم تتحطم ، ولم ترسل حزنها في كل مكان وجراحها ، بل راحت تزف للالم قصصا لا اعظم ولا اخلد .

مرة ... مرتين ... ثلاث مرات ... عشر مرات تضيع غاده في متاهات العينين الخضراوين ... ترحل معهما في غيبوبة شعرية لا واعية، ثم تستيقظ فجأة لترى امامها حروف الارقام في صفحات المصنف ترقص كديدان مرعبة .

ثمة شطحات امومية تلفحها بين حين وحين فتصور الامومة ابدع تصوير ... تغوص الى الاعماق ... فتستحيل الحروف ارياشا تحمل اللون والظل ، وتعين المسافات ... كانت كلماتها ، وهي تحلم بنفسها اما مقبلة ، تضع امامي لوحة « الامومة » التي تعد اروع واجل وامتع ما انتجه بيكاسو ... هنا القدرة ... هنا الفذاذة ... هنا الموهبة ... ان يستطيع الكاتب رسم اللوحات بالحروف ، مستغنيا عن الارياش والطلاءات .

كأني بغاده تؤمن بالايحاء ... بضربات الريشة الخفيفة التي تنفذ

---

(١) مجلة الاداب . حزيران ١٩٦٢ ص : ٣٢

(٢) مجلة الاداب . نيسان ١٩٦٣ ص : ٤٢

الى اعماق الانسان ، بالكلمات المشحونة التي يأخذ منها كل انسان حسب حساسيته وقدرته ... تقرأ القصة من قصصها فتحس بالصور تتفجر امام ناظريك تفجيرا ... فكيفما لامس قلمها الورق رسم صورة ... لوحة كبيرة ... صغيرة ... لا تؤطرها ، وانما تترك اطرافها حرة ، لتشركك انت في وضع الاطار ، فقد تريده احمر او اصفر او اخضر ... اما هي فحسبها ان جعلتك تشاركها في العمل ، فلا تمل او تسأم ... تأسرك من اول القصة الى اخرها ... تدعوك فتستجيب ، لتغيب معها في تلك المتاهات الحلوة .. في تلك الرحلات القصصية الناعمة ، رحلات تنسى فيها واقعك ، وتحيا هنيهات مع الكاتبة ومع ابطالها ... ترصد باهتمام غرابة سحر العينين الخضراوين ، حتى صار يهمك ان تعرف اين ستنتهي قصة السيطرة ـ سيطرة العينين وكيف ؟ انها تخلق عندك فضولا كبيرا ... شوقا جارفا لتعرف نهاية سحر العينين ، وطغيانهما النزق القاهر الجبار المستعلي ... هل ستحطمان « طلعة » ؟ هل ستتركانها اشلاء ممزقة ، او ستخلفان لها بقية من ذماء الروح ؟

في فن القصة شيء نسميه « المماطلة » وهي ان يستطيع الكاتب حبس انفاس قارئه الى النهاية دون ان يسأمه ... يخلق في نفسه مئات الاسئلة ... ماذا ؟ ما عسى ان يكون ؟ اي شيء سيحدث؟والكاتب يمعن ... يغذ السير ... يماطل ... لا يريد ان يعطي الحل سريعا ... حتى يشعرنا بشيء من توتر الاعصاب ... كلما اوشكت العقدة ان تنحل ، زادها لفلفة وتعقيدا ، موه دروبها وضيع معالمها ... حتى يصل الى اخر الشوط منهكا ... عندئذ يبوح له بالسر في شيء من هدوء الاعصاب ، وبرود الانفاس .

لعل غاده استقت هذه الطريقة من الكاتب الاميركي هنري جيمس، فهو في قصته (صورة امرأة) يحبس انفاس قارئه شوقا الى تتبع الشخصية القصصية ، حتى يجعله يتساءل : ما عسى ان تكون هذه الصورة ؟ وبعد هذا الحبس الطويل والتشويق المضني ، والمماطلة الماكرة ، يعود جيمس ليقول : ان الصورة هي صورة « اليزابث ارثر » ، وان هذه المرأة معقدة بطبيعتها ، وهذا الغموض هو الذي جعل « رالف توشيت » يترصد غموضها وشذوذها .

هنالك شيء اخر في قصصها ، اعني اللجوء الى الرمز ... وادى ان القصد منه هو عدم مصارحة القارىء بالاشياء الصميمة ، وبخاصة في القصة الاولى (عيناك قدري) ... فهي قصة الكاتبة نفسها هي بطلتها وشخص اخر يدعى « عماد» ... ويتضح للمدقق ان غادة هي البطلة في معظم قصصها تروي في كل قصة تجربة من تجاربها ،او حادثة من الحوادث التي مرت بها .

ان كاتب القصة لا يمكنه ان يستعير ابطاله من الخيال ـ ولو جرب ذلك لفشل ـ بل من الواقع ، ويشترط بسماتهم ان تكون حقيقية مئة بالمئة ، نراهم ونعيش معهم كل يوم ... انهم انا وانت والاخر .

لقد اتهم بعض النقاد غاده بانها تجري وراء الصنعة والتكلف والتعابير المنحوتة ، وبانها تلجأ الى العواصف اللفظية والتزويق الكلامي المفتعل ، والا كيف تستطيع ان تعطي هذه التعابير التي لا ينكر جمالها ؟ وقالوا عن اسلوبها انه « جبراني » وانشائي ، وظنوا ـ وبعض الظن اثم ـ ان محاولاتها في القصة ستبقى مجرد محاولات ، ما لم تتخل عن ذلك كله ... ولكن ليت شعري متى كانت القصة تقارير ورصف حكايات بالفاظ باهتة ليس غير ؟ هاكم كرم ملحم كرم ، وطه حسين ، وميخائيل نعيمه ، وشكيب الجابري ، الا يطعمون القصة باللفظة والصورة الملونة ؟ .

ان الاسلوب المغسول الذي يستعمله بعض كتاب القصة عندنا ، لا نغالي اذا قلنا انه اسلوب صحفي يعتمد على السرد الاعجف والرواية الهزيلة ... يلتقطون المشاهد ويقررونها في قصصهم ، كما يلتقطها المصور الفوتوغرافي عينا بعين ... لا حرارة ... لا زخم في الالفاظ والعبارات ... لا اغوار نفسية ولا ابعاد وجدانية عينا بعين ... لا حرارة ... لا زخم في الالفاظ والعبارات ... لا اغوار نفسية ولا ابعاد وجدانية تختبىء وراءهما ... الكلمات لا توحي باكثر من مدلول حروفها ، ولا تحمل شحنات انفعالية زاخرة قادرة على هز القارىء واشراكه في ما يقرأ .

قصص هؤلاء واضحة صريحة ، نقرؤها فلا تحرك شيئا في كهوف وجداننا ، ولا تترك اثرا او انطباعا عميقا يذكرنا باحداثها بعد ان نطبق الكتاب ، ويقول اخر انها لا تقوى على الديمومة ... من هنا قفزت غاده بقصصها الى القمة ... من هذه الزاوية ... فشقت دربها بين عمالقة القصة في العالم العربي ، بهذا الاسلوب الابتكاري الفريد ... انه نسيج وحده ، لم نألفه عند كاتبة عربية من قبل ، الاسلوب الذي يعتمد على تفجير الصور والمماطلة والتشويق والاثارة المحرقة اللطيفة...تصف انفعالات ابطالها وحركاتهم المتعاقبة برشاقة العازف الماهر ... تغمس الفاظها بالوان الغروب حينا ، وبالوان قوس قزح حينا اخر ، وبالوان الطيف حينا ثالثا .

الفاظ مضمخة ، يأخذك ترفها ، وتستهويك اناقتها ، دون ان تحس في طياتها قتر الشهوة او عربدة الجنس ... ان غاده كاتبة من نوع فرويدي ستطعم ادبنا العربي باعماق لا اوسع ولا ابعد ... ابعاد يحلم بها كتابنا ، ولكن ثقافتهم العربية الصرف ، واطلاعهم المحدود ، يقفان دون الوصول اليها .

لقد انصبت في اسلوبها روافد الاساليب العربية والاجنبية ، فاخذت من لورانس ، وولف ، وهنري جيمس ، وديكنز ، وويلز ، عمق الافكار وغناها . ومن القرآن الكريم جمال الالفاظ وسمو البيان ، ثم صهرت ذلك كله في بوتقة كبيرة من التجارب الحياتية المتسمة بالعنف وحدة الصراع .

دمشق — عيسى فتوح

صدر حديثا :

الظمأ والينبوع

رواية من تاليف

فاضل السباعي

٢٥٠ ق. ل — دار الاداب